

# نفحات عطرة من هدي النبي ﷺ في تعامله مع أهل بيته

ورقة بحثية مقدمة إلى الندوة العلمية الموسومة:

وقفات من حياة النبي ﷺ

المنعقدة يوم 30 نوفمبر 2017

بكلية الشريعة والاقتصاد

إعداد:

د. سعيدة بوفاغس [best96762@gmail.com](mailto:best96762@gmail.com)

أستاذ محاضر "قسم أ" — قسم الفقه وأصوله/كلية الشريعة والاقتصاد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية — قسنطينة —

هاتف : 0773289343

الحمد لله وكفى وصلى الله وسلم على نبيه المصطفى، وعلى آله وصحبه أولي النهى، ومن سار على دربهم أو لآثرهم اقتفى، وبعد،

أيها الجمعُ الكريم: سلام الله عليكم جميعاً ورحمته تعالى وبركاته.

إن الحديث عن سيرة المصطفى ﷺ غذاءٌ للقلوب وبهجةٌ للنفوس وعبادةٌ يُتقرب بها إلى الله عزوجل، فهو حديث عن النبي القائد والرسول الداعية الربِّي، الذي أمضى حياته في البذل والعطاء والصبر والمصابرة من أجل تحقيق العبودية لله والدعوة إلى دينه تبارك وتعالى، وفي التذكير بسيرته ﷺ فوائدٌ عظيمة، وسأحاول أن أفتح نافذةً عن جزءٍ منها من خلال الكلام عن سيرته الأسرية، شحذاً للهمم وعنايةً بالهدي النبوي في معاملته ﷺ لأهل بيته.

أيها الإخوة الأفاضل:

لقد تمثل المصطفى ﷺ أجمل الصور في المعاشرة الحسنة لسائر الناس ولأهله خاصة؛ وقد تجلت تلك الصور في أبهى حُلِّها من خلال ما جبله الله عليه من الخصال الحميدة والصفات الرقيقة، ولا عجب في ذلك، فقد وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم/4). وفي السنة المطهرة ما يدل على الاهتمام بالأهل وتعظيم شأن هذا الهدي القويم، فلقد تضافرت النصوص الدالة على ذلك، حيث قال ﷺ: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي"<sup>(1)</sup>، كما أوصى النبي ﷺ بالنساء خيراً في أعظم مؤتمر إسلامي تشهد فيه خطبة حجة الوداع على هذا الاهتمام والحرص؛ حيث قال: "واستوصوا بالنساء خيراً..."<sup>(2)</sup>، كما ثبت عنه قوله ﷺ في مناسبة أخرى: "إني أخرج عليكم حقَّ الضعيفين: اليتيم والمرأة"<sup>(3)</sup>.

(1) أخرجه ابن ماجه بلفظه في كتاب النكاح، باب حسن معاشره النساء، حديث رقم 1977، 636/1، وصححه الألباني في تعليقه على ابن ماجه، وقال السيوطي: حديث حسن.

انظر: الجامع الصغير من حديث البشير النذير، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، 616/2.

(2) أخرجه البخاري بلفظه في كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء، برقم 4890، وباب المداراة مع النساء، رقم 4889؛ بلفظ: "المرأة كالضلع إن أقمتهما كسرتما، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج".

انظر: صحيح البخاري، 1987/5.

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب، باب حق اليتيم، برقم 3678، 1213/2، وحسنه الألباني في التعليق، وصححه الحاكم في المستدرک، برقم 211، 131/1، وقال بأنه "على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، برقم 5565، 376/12، كما حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم 1015، 12/3، وصحيح الجامع، برقم 2447، 422/1.

لقد كان ﷺ لزوجاته الزوج المعين والموجه الناصح والجليس المؤانس؛ وكان ﷺ يمازح نساءه في السراء ويواسيهن في الضراء... كان يسمع شكواهن ويكفكف دموعهن، ولا يؤذيهن بلسانه ولا يجرح مشاعرهن بعبارته، يتحمل منهن وما ضرب بيده امرأة قط، لا يتصيد الأخطاء ولا يتتبع العثرات ولا يضحّم الزلات ولا يُديم العتاب، يتحمل الهفوة ويتغاضى عن الكبوة، قليل الملامة كثير الشكر والعرفان...

ولعل الوقوف على أصالة تلك القيم في حسن معاملة الأهل يكون من خلال إطلالة فتحتها لنا أمنا عائشة رضي الله عنها على بيت النبوة، فقد نقلت لنا عدة مشاهد من هذا البيت الكريم يمكن تلخيصها في الروايات التالية:

**1 - المشهد الأول:** سُئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ماذا كان يصنع رسول الله ﷺ في بيته؟ فأجابت رضي الله عنها: "كان رسول الله ﷺ أَلَيْنَ الناس وأكرم الناس، كان رجلاً من رجالكم؛ إلا أنه كان ضحاًكاً بساماً، كان يكون في مهنة أهله: يخصف نعله، ويرقع ثوبه ويخدم نفسه، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة"<sup>(1)</sup>، لقد كان النبي ﷺ يفعل ذلك مع تحمله لأعباء الرسالة من تبليغ وتوجيه وتعليم، مع قيادة الجيش في الغزوات وإعداده للسرايا، فاع يكن نبينا تشغله قيادة الأمة وهم دعوة الناس وإصلاح المجتمع عن إعطاء أخص قراباته برّه وكريم خلقه مما يورث الألفة والمحبة بينهم.

والتأمل في قول أم المؤمنين عائشة: "كان يكون في مهنة أهله" يحق له أن يتساءل: كم كانت مساحة بيت المصطفى ﷺ حتى يكون هو في خدمة أهله؟ وهل اشركت أمنا عائشة رضي الله عنها من كثرة الأعمال ومشقتها حتى قام النبي ﷺ بخدمتها ومعونتها؟!

لقد عاش نبينا ﷺ مع زوجته عائشة رضي الله عنها في حجرة لا تتجاوز مساحتها خطوات معدودات، وكان يأتي عليهما شهران وما أوقد في بيته نار؛ فهل ثمة جهدٌ تحتاج معه عائشة إلى معونة النبي ﷺ؟!

(1) أخرجه البخاري بلفظه في كتاب الجماعة والإمامة، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج، برقم 644، 239/1، وفي كتاب النفقات، باب خدمة الرجل في أهله، رقم 5048، 2052/5.

فظهر بأن صنيعه في بيته يجعل رسالةً إلى قلب الزوجة كي تصنع فيها وشائج المودة ما لا تفعله آلاف الكلمات، وليقتدي به الرجال أيضاً، فيستنوا بسنته ويهتدوا بهديه ﷺ.

## 2 – المشهد الثاني : كان النبي ﷺ وقياً مع زوجاته حتى بعد الوفاة، ومن ذلك ما

رواه البخاري عن عائشة قالت: ما غرّتُ على امرأةٍ للنبي ﷺ ما غرّتُ على خديجة، هلكتُ قبل أن يتزوجني (يعني على الرغم من أنها هلكت قبل أن يتزوجني)، لما كنتُ أسمعُه يذكرها، وأمره الله أن يُبشّرَها ببيتٍ من قصب، وإن كان لَيَذْبَحُ الشاةَ فيهِدِي في خَلَائِلِهَا منها ما يَسْعُهُنَّ، ومعلوم أن أمَّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها ساندت النبي ﷺ في أعسرِ الأوقات، ومَنَحَتْهُ من حنانها وحسنِ رعايتها الشيءَ الكثير، ووقفتُ إلى جانبه بالنفس والمال، فبقي وقياً يذكرها دائماً — بعد وفاتها رضي الله عنها — إلى أن التحق بالرفيق الأعلى، فاستحقتُ التكريم الإلهي الذي بيّنه أبو هريرة رضي الله عنه بقوله: "أتى جبريلُ النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله؛ هذه خديجة قد أتتُ معها إناءً فيه إدامٌ أو طعامٌ أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربِّها وميني، وبشّرْها ببيتٍ في الجنة من قصبٍ لا صخب فيه ولا نصب" (1)، وقد أكّد النبي ﷺ هذه الحقيقة حين قال: "خيرُ نساءيها مريم، وخيرُ نساءيها خديجة" (2).

## 3 – المشهد الثالث: كان رسول الله ﷺ جالساً في بيت عائشة، يتبادلان الحديث في جوٍّ هاديٍ

مفعمٍ بالمودة.. فيفاجئهما طرقُ الباب، فإذا بلحدم أمّ المؤمنين زينب بنت جحش يحمل بين يديه طعاماً صنعته زينب للنبي ﷺ فتحرّكت في قلب عائشة غيرُتها، فأخذت الصحيفة من يد الخادم فضربتها بحجرٍ فكسرتها نصفين، وتناثر الطعام يميناً وشمالاً!!

فجعل المصطفى ﷺ يجمع بيده الكريمة الطعام من هنا وهنا، وهو يقول: "غارَتْ أمُّكم، غارَتْ أمُّكم"، ثم وضع الطعام في صحيفة عائشة السليمة، وأبقى الصحيفة المكسورة عند عائشة! وهكذا انتهت المشكلة وعولج الخطأ بكلِّ هدوء، دون أن يعتبر رسولُ الله ﷺ هذا التصرف قضيةً تقلل من هيئته أو تُخلِّ بِقِوَامَتِهِ؟، ومن دون توبيخ أو وعيد بالعقاب، إذ راعى في المرأة نفسيَّتها وسببَ خطئها

(1) أخرجه البخاري بلفظه في مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها، رقم 3609، 1389/3، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين، رقم 2432، ص 624 .

(2) أخرجه البخاري بلفظه في مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها، رقم 3604، 1388/3، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم 2430، ص 624 .

**4 – المشهد الرابع:** نقلت لنا أن عائشة رضي الله عنها أنه نشب خلافٌ بينها وبين المصطفى ﷺ علا صوتها على صوت النبي ﷺ وراجعت في بعض الأمور، ووافقت هذه اللحظات مرور الصديق رضي الله عنه بباب ابنته عائشة، فلاحظ صوبها العالي على النبي ﷺ فاستأذن ودخل بيت عائشة وقد امتلاً غيظاً، وهو يقول: "يا ابنة أمّ رومان!" — لم ينسبها لنفسه من شدة غضبه منها — قال: "لا أراك ترفعين صوتك على رسول الله".

وإذا بعائشة التي كانت تراجع النبي ﷺ تلوذ بالذي كانت تراجع وتحتمي خلف ظهره، ورسول الله ﷺ يمنع أبا بكرٍ منها ويهدئ غضبه، حتى خرج أبو بكر رضي الله عنه من عندهم غاضباً، فالتفت النبي ﷺ إلى عائشة وقال لها مماًزحاً ومخففاً: "يا عائشة، كيف رأيتني أنقذتُك من الرجل؟!".

فستحيّت السيدة عائشة رضي الله عنها، وذهب عنها ما كان سبباً لمراجعتها لرسول الله ﷺ النبي ﷺ. وبمرّ الصديق رضي الله عنه مرةً أخرى على بيت عائشة؛ فيسمع رنين الضحكات، فيستأذن عليهما ويقول: "أدخِلاني في سِلْمِكما كما أدخِلتُماني في حربِكما"؛ فقلل النبي ﷺ: "قد فعلنا، قد فعلنا".

**5 – المشهد الخامس:** كان رسول الله ﷺ قدوةً حسنةً في معاملة أهله، حتى كانت زوجاته يجادلنه بل ويتخاصمن معه، ونتيجةً لذلك فإنّ النساء اكتسبن على عهده ﷺ الشخصية القوية التي تمكنهنّ من مراجعة أزواجهنّ إن أخطأوا، فهذا عمر بن الخطاب يقول: كنّا معشر قريش نعلب النساء، فلما قدّمنا على الأنصار إذا قومٌ تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فصخبّت على امرأتي فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني، قالت: ولم تُنكر أن أراجعك؟ فوالله إنّ أزواج النبي ﷺ كيراجعنه<sup>(1)</sup>.

وفي رواية أخرى عند مسلم أن عمر بن الخطاب قال: كنا في الجاهلية ما نعدُّ للنساء أمراً حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل، وقسمَ لهنّ ما قسم. قال: فبينما أنا في أمرٍ أثمره إذ قالت لي امرأتي: لو صنعتَ كذا وكذا! فقلت لها: وما لك أنتِ ولِمَا هاهنا؟ وما تكلفك في أمرٍ أريده؟.

(1) أخرجه البخاري بلفظه في كتاب النكاح، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها، برقم 4895، 1991/5، ومسلم في كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن... برقم 1479، ص 373.

فقلت لي: عجباً لك يا ابن الخطاب! ما تريد أن تُراجع أنتَ وإنَّ ابنتك لتراجع رسولَ الله ﷺ حتى يظلَّ يومه غضبان! قال عمر: فأخذُ رداي ثم أخرجُ مكاني حتى أدخلَ على حفصة فقلت لها: يا بُنَيَّةُ، إنك لتراجعين رسولَ الله ﷺ حتى يظلَّ يومه غضبان؟ فقلت حفصة: والله إننا لنراجعه! فقلت: تعلمين أني أحذرك عقوبةَ الله وغضبَ رسوله، لا تُعْرَتِكِ هذه التي قد أعجبها حُسْنُها وحبُّ رسولِ الله ﷺ إياها (يعني عائشة) (1).

قال ابن حجر في "فتح الباري": "وفي الحديث أن شدة الوطأة على النساء أمرٌ مذموم، لأن النبي ﷺ أخذَ بسيرة الأنصار في نسائهم وتركَ سيرة قومه" (2).

ولأجل ذلك ورد في الأثر أن الصحابة كانوا على عهد النبي ﷺ يتحاشون التوسُّع مع نسائهم في الحديث ونحوه، خشية أن يسيئوا إليهنَّ ويقصِّروا في حقوقهنَّ؛ فيترل فيهم الوحي بالتقريع والتأنيب، قال ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: "كنا نتقي الكلامَ والانبساطَ إلى نساءنا على عهد النبي ﷺ هيبةً أن يترل فيه شيءٌ، فلما توفي النبي ﷺ تكلمنا وانبسطنا" (3).

**6 — المشهد السادس:** تبرز فيه براعة المصطفى ﷺ في حل مشاكل الأسرة، إذ يدخل ﷺ بيته ذات يوم، فيجد أمَّ المؤمنين صفية بنت حُبيِّ (كانت سيدة بني النضير قبل أن يتزوجها النبي ﷺ) تبكي وتمسح الدموع من مآقيها! فسألها عن سبب بكائها؛ فأخبرته أن حفصة بنت عمر جرحت مشاعرها، وقالت لها: "أنتِ ابنةُ يهودي".

فقال لها النبيُّ ﷺ بضعَ كلماتٍ ضمَّدت جرحها وجبرتْ خاطرَها؛ قال ﷺ: "قولي لها: زوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى"، ثم التفت النبيُّ ﷺ إلى حفصة وقال لها: "أتقِ الله يا حفصة". وهكذا عالج النبيُّ ﷺ الموقفَ بهدوء، فهدأَ النفوس، وذكرَ المخطئَ بخطئه.

**7 — المشهد السابع:** كان النبي ﷺ كثيراً ما يشاور أهله ويثُّ لهم همومه، ونذكر في هذا المقام أمَّ سلمة التي كان لها الفضلُ في حفظ كيانِ الجماعة الإسلامية، ووقايتها من التدهور في أزمةٍ داخليةٍ أوقدت نارها بين المسلمين وبين قائدهم رسول الله ﷺ شروطَ الصلح التي تمَّ عليها عقدُ الهدنة يوم الحديبية، حيث رأى فيه بعضهم غبناً شديداً على المسلمين، وأنَّ قبوله لُونٌ من الدلَّة لا

(1) انظر: صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء...، رقم 31، ص 372.

(2) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، 291/9.

(3) أخرجه البخاري بلفظه في كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء، برقم 4891، 1987/5.

يَتَّفِقُ وَعِزَّةُ الْإِسْلَامِ، وَإِعْطَاءُ الدِّيَّةِ فِي الدِّينِ، وَمِنْ هُنَا لَمْ يَبَادِرُوا إِلَى تَنْفِيذِ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ بِالتَّحَلُّلِ مِنْ إِحْرَامِهِمْ، وَامْتَنَعُوا ﷺ مِنْ نَحْرِ هَدْيِهِمْ، حَتَّى دَخَلَ ﷺ عَلَى أُمِّ سَلْمَةَ مَغْمُومًا فَأَشَارَتْ عَلَيْهِ بِأَنْ يَنْحَرَ وَيَدْعُو الْخَلِيقَ لِیَخْلُقَ لَهُ، فَانْشَرَحَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ صَدْرُهُ، وَاسْتَقَرَّ قَلْبُهُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَى مَا ارْتَأَتْ رَبَّةُ الْفِكْرِ الْجَيِّدِ وَالرَّأْيِ السَّلِيمِ، فَقَامَ مِنْ فَوْرِهِ إِلَى هَدْيِهِ فَنَحَرَهُ، وَدَعَا بِالْخَلِيقِ فَحَلَقَ رَأْسَهُ<sup>(1)</sup>، فَلَمْ يَكِدِ الْمُسْلِمُونَ يَرَوْنَ النَّبِيَّ ﷺ يَذْبَحُ وَيَحْلُقُ، حَتَّى تَوَاتَبُوا إِلَى تَنْفِيذِ الْأَمْرِ، وَالتَّأَمُّ الشَّمْلُ، وَكَانَ ذَلِكَ الرَّأْيُ فَتْحًا وَأَيُّ فَتْحٍ<sup>(2)</sup>.

**8 — المشهد الثامن:** فِي حَسَنِ مَعَامَلَتِهِ ﷺ لِلْأَطْفَالِ أَوْ لِعِلْمَانِهِ (أَيَّ خَدَمِهِ): فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمُرُّ بِالصَّبِيَّانِ فَيَسْلِمُ عَلَيْهِمْ<sup>(3)</sup>، وَكَانَ يَحْمِلُ أَمَامَهُ ابْنَةَ زَيْنَبَ وَهُوَ يَصْلِي بِالنَّاسِ، وَجَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَهُمَا ابْنَا بِنْتِهِ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ فَجَعَلَ يَمْشِيانِ وَيَعْتِرَانِ، فَتَزَلُّ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْمَنْبَرِ فَحَمَلَهُمَا حَتَّى وَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ.

لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَطِيفًا رَحِيمًا فَلَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مَتَفَحِّشًا ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ؛ فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، وَاللَّهُ مَا قَالَ أَفْ قَطُّ، وَلَا قَالَ لَشَيْءٍ لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا"<sup>(4)</sup>.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا قَالَتْ: "مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَادِمًا لَهُ وَلَا امْرَأَةً، وَلَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا أَنْ يَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"، وَفِي رِوَايَةٍ: "مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا إِلَّا أَنْ يَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"<sup>(5)</sup>.

(1) فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: خرجنا مع النبي ﷺ معتمرين فحال كفار قريش دون البيت، فنحر رسول الله ﷺ بدنه وحلق رأسه.

أخرجه البخاري في كتاب الإحصار وجزاء الصيد، باب النحر قبل الحلق في الحصر، رقم 1717، 643/2 .

وانظر مجمل ما ورد في: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 284/16، أضواء البيان، الشنقيطي، 291/1 .

(2) وثيقة مؤتمر السكان والتنمية رؤية شرعية ، سلسلة كتب الأمة ، الشبكة الإسلامية ، بتصرف، مكانة المرأة في التشريع الإسلامي، زينب رضوان، المجلة الاجتماعية القومية عدد خاص بالمرأة، ص 271، 272، بتصرف .

(3) أخرجه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري.

(4) أخرجه البخاري ومسلم.

(5) أخرجه البخاري ومسلم.

فأين نحن من هذه القدوة؟ و ما أحوجنا أن نروي أنفسنا ومجتمعنا من هذا النبع الصافي  
والخُلُق الوافي، وبالأخصّ في هذا العصر الذي تطالعنا فيه الدراساتُ باستمرارٍ عن أخبار  
التراغى الزوجية والعنف الأسري، وارتفاع معدّلات الآفات الاجتماعية في المجتمع!!  
نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن اهتدى بهدي النبي ﷺ واستنّ بسنته، صلوات ربي وسلامه عليه  
في الأولين والآخرين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.